الباب الخامس

في
الثبات على الحق

obeikandl.com

obeikandl.com

(أ) عوامل الثبات على الحق

الثبات على الحق سِيْمَا أهل الحق؛ فأهل الحق هم أعظم الناس صبرًا على أقوالهم ومعتقداتهم، لما سأل هرقل أبا سفيان بن حرب عن أصحاب محمدٍ ﷺ في المدة التي مَادَّ فيها رسول الله ﷺ قريشًا: هل يرتد أحدٌ منهم عن دينه سخطة له بعد أن يدخل فيه؟ قال: لا، قال: وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب(١).

قال شيخ الإسلام: أما أهل السنة والحديث فما يعلم أحدٌ من علمائهم ولا صالح عامتهم رجع قط عن قوله واعتقاده، بل هم أعظم الناس صبرًا على ذلك، وإن امتحنوا بأنواع المحن، وفتنوا بأنواع الفتن، وهذه حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدمين كأهل الأخدود ونحوهم، وكسلف هذه الأمة والصحابة والتابعين وغيرهم من الأئمة، حتى كان مالك رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «لا تبغضوا أحدًا لم يصبه في هذا الأمر بلاء».

يقول: إن الله لابد أن يبتلي المؤمن فإن صبر رفع درجته، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر].

ومن صبر من أهل الأهواء على قوله فذاك لما فيه من الحق، إذ لابد في كل بدعة عليها طائفة كبيرة من الناس، أن يكون فيها من الحق الذي جاء به الرسول ﷺ، ويوافق عليه أهل السنة والحديث ما يوجب قبولها؛ إذ الباطل المحض لا يقبل بحال.

---

(١) رواه البخاري (١/ ٤٢، ٤٣) بدء الوحي.

وبالجملة فالثبات والاستقرار في أهل الحديث والسنة أضعاف أضعاف ما هو عند أهل الكلام والفلسفة[١].

والفتن التي يتعرض لها المسلم في هذه الأزمنة الغابرة المتأخرة كثيرة متنوعة، فمنها فتن الشهوات والشبهات، وفتنة المال، وفتنة الشهرة، وما يتعرض له المسلم الملتزم في أزمنة غلبة الطواغيت وإقصاء حكم الله ﷻ: كفتنة السجون والمعتقلات والتشهير والتعذيب والتكذيب، والتهديد بالقتل وغير ذلك من وسائل الظالمين في الصدِّ عن سبيل رب العالمين، ولعل هذا الفصل من هذا الكتاب المبارك يخص هذا النوع الأخير من الفتن، وفي غضون الكتاب علاج لبعض الفتن الأخرى: كفتنة شهوة النساء في باب العفة، وكذا فتنة المال في باب النفقة في سبيل الله ﷻ، وعلى كل حال ذكر العلماء عوامل للثبات على الحق عمومًا، وسوف نشير إليها باختصار قبل أن نبدأ في ذكر الأمثلة والمواقف الإيمانية في الثبات على الحق، نسأل الله أن يُمَسِّكَنَا الإسلام حتى نلقاه به.

فمن عوامل الثبات على الحق تدبر القرآن ومدارسته والعمل به:

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

فمن أعظم أسباب الثبات الاعتصام بالقرآن أي: قراءته وحفظه ومدارسته والقيام به بالليل والعمل به بالنهار، وإنما كان القرآن من أعظم وسائل الثبات لأمور:

الأمر الأول- أنه يشتمل على الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، كما قال تعالى: ﴿ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

الثاني- أن سماع القرآن يزيد الإيمان كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤].

---

(١) «نقض المنطق» (٤٢، ٤٣)، و«مجموع الفتاوى» (٤/ ٥٠، ٥١).

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

الثالث- أن القرآن يعالج أمراض الشبهات والشهوات كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وإذا سلم القلب من أمراض الشبهات والشهوات كان أقوى على مواجهة الفتن وأكثر ثباتًا على الحق.

الرابع- أن القرآن يشتمل على القصص الذي يبشر المؤمنين بالنصر والتمكين، ويظهر فيه عاقبة المجرمين كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠].

ومن عوامل ثبات المؤمنين على الحق الاستجابة لله - عَزَّ وَجَلَّ - ولرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء: ٦٦]

فالاستجابة لأمر الله عَزَّ وَجَلَّ، والانتهاء عما نهى الله – عَزَّ وَجَلَّ – عنه يقوي قلب المؤمن، فيكون أقدر على الثبات، وأكثر تمسكًا بالحق حتى الممات.

فكل الطاعات أغذية لقلوب العباد، كما أن كُلَّ المعاصي سموم القلوب، فمهما التزم العبد بأوامر الله عَزَّ وَجَلَّ، وانتهى عما نهى الله – عَزَّ وَجَلَّ – عنه، فإنه يكون قويًا في مواجهة الفتن، ومهما كان العبد مفرطًا في اتباع شرع الله، متهاونًا في تنفيذه، فإنه يكون ضعيفًا أمام فتن الشبهات والشهوات، ومن أُعْطِى أسباب الفتنة من نفسه أولًا لم ينجُ آخرًا وإن كان جاهلًا.

قال بعضهم:

رَأيتُ الذنوبَ تُميتُ القلوبَ ... وقدْ يورثُ الذلَّ إدمانُها
وَتَرْكُ الذُّنوبِ حَيَاةُ القلوبِ ... وَخَيْرٌ لِنَفسِك عِصْيانُها

ومن ذلك كثرة ذكر الله ﷻ:

لما أرسل الله – ﷻ – هارون وموسى إلى فرعون أوصاهما بقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه: ٤٢].

وأمر الله ﷻ المؤمنين عند ملاقاة الكفار بالإكثار من الذكر، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]

فكثرة الذكر تقوِّي القلب والبدن، وقد علم النبي ﷺ ابنته فاطمة وعليًا رضي الله عنهما أن يُسَبّحا كل ليلة إذا أخذا مضاجعهما ثلاثًا وثلاثين، ويحمدا ثلاثًا وثلاثين، ويكبرا ثلاثًا وثلاثين، لما سألته الخادم، وشكت إليه ما تقاسيه من الطحن والسعي والخدمة، فعلَّمها ذلك وقال: «**إنه خير لكما من خادم**»(١).

فقيل: إن من داوم على ذلك وجد قوةً في بدنه تغنيه عن خادم.

فيستعان بذكر الله – ﷻ – على مواجهة الفتن والابتلاء وملاقاة الأعداء.

ومن ذلك سلوك سبيل السلف الصالح رضي الله عنهم:

وقد مضى قول شيخ الإسلام بأن أهل السنة والجماعة أعظم الناس صبرًا على أقوالهم ومعتقداتهم، وكذا أهل البدع هم أكثر الناس شكًا واضطرابًا.

قال أبو حامد الغزالي: «أكثر الناس شكًا عند الموت أهل الكلام».

قال شيخ الإسلام كذلك: وتجد عامة هؤلاء الخارجين عن منهاج السلف من المتكلمة والمتصوفة يعترف بذلك، إما عند الموت، وإما قبل الموت.

هذا أبو الحسن الأشعري نشأ في الاعتزال أربعين عامًا، يناظر عليه، ثم رجع عن ذلك، وصرح بتضليل المعتزلة، وبالغ في الرد عليهم.

---

(١) رواه البخاري (١١/ ١١٩) الدعوات، ومسلم (١٧/ ٤٥) الدعوات، والترمذي (١٢/ ٢٩٣-٢٩٤) أبواب الدعاء.

وهذا أبو حامد الغزالي مع فرط ذكائه وتألهه ومعرفته بالكلام والفلسفة وسلوكه طريق الزهد والرياضة والتصوف ينتهي في هذه المسائل إلى الوقوف والحيرة، ويحيل في آخر أمره على طريقة أهل الكشف، وإن كان بعد ذلك رجع إلى طريق أهل الحديث، وصَنَّف إلجام العوام عن علم الكلام.

وكذا أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي قال في كتابه الذي صَنَّفَهُ في «أقسام اللذات»: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وأقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٠]، ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥].

ثم قال: ومن جَرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي، وكان يتمثل كثيرًا:

نِهَايَةُ إقْدام العُقُول عِقَالُ ... وَأَكْثَرُ سَعْيِ العَالَمِينَ ضَلالُ
وأرْوَاحُنا في وَحْشَةٍ من جسومنا ... وَحَاصِلُ دُنيَانا أذَىً وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ من بحثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوى أَن جَمَعْنَا فِيه قِيلَ وقَالُوا

وهذا إمام الحرمين؛ ترك ما كان ينتحله ويقدره واختار مذهب السلف، وكان يقول: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو أني عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به.

وقال عند موته: لقد خضت البحر الخِضَم وخَليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت فيما نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنذا أموت على عقيدة أمي - أو قال: عقيدة عجائز نيسابور -.

وكذا أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني أخبر أنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحَيْرة والندم، وكان ينشد:

لَعَمري لقد طفت المعاهد كُلَّهَا ... وسَيرَّتُ طرفي بين تلكَ المعَالم

فَلَمْ أرَ إلا وَاضِعًا كَفَّ حائرٍ ... عَلَى ذَقنٍ أوْ قارعًا سِنَّ نَادِمِ(١)

ولا يكفي المسلم أن يعتقد اعتقاد أهل الحق ويسلك طريقهم حتى يعلم أدلة الحق الذي هم عليه، فالجهل بأدلة الحق يجعل المسلم عُرضَة للتقلب والشك، وعدم الثبات على الحق.

ومن عوامل الثبات كثرة العبادات والطاعات لرب الأرض والسموات:

كما في الحديث القدسي: «**وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِى لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِى لأُعِيذَنَّهُ**»(٢).

فالعبد الذي يتقرب إلى الله - ﷻ - بالنوافل بعد استكمال الفرائض يوفقه الله - ﷻ - لكل خير، ويصرف عنه كل شر، وتصير جوارح العبد كلها مشغولةً بالله ﷻ، وترتفع رتبته إلى درجة عَليَّةً سَنية فإذا سأل الله ﷻ أجابه، وإذا احتمى بجنابه واستعاذ به أعاذه، وكل هذه أسباب وعوامل للثبات على الحق، وقد قال الله ﷻ: ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ** ﴾ [محمد: ١٧].

فمهما ازداد المسلم من الطاعة والخير يزداد رسوخ قدمه على طريق الله ﷻ، فلا يزعزعه إرجاف المرجفين، وتهويل المبطلين، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

ومن عوامل الثبات على دين الله - ﷻ - القرب من العلماء العاملين والدعاة المخلصين:

قال أنس رضي الله عنه: «وما نفضنا عن النبي ﷺ الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا»(٣).

---

(١) «مجموع الفتاوى» باختصار (٤/ ٧٢، ٧٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه الترمذي (١٣/ ١٠٤، ١٠٥ عارضة) المناقب، وقال: هذا حديث غريب صحيح، وابن ماجه [١٦٣٠] الجنائز، والحاكم مختصرًا (٣/ ٥٧) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأقره الذهبي وصححه الألباني.

قال الأستاذ سعيد حوى: فيه رد على من ادعى أن حال الصحابة ورقيهم الروحي لا يُفسر بوجود رسول الله ﷺ على رأسهم، وهو قول انتشر في هذا العصر، ويكفي في رده قوله - جل جلاله - في حق رسول الله ﷺ: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، كما أن في هذا الحديث ما يدل على أن الرُقي القلبي منوط بالاجتماع مع أهل الحق، والارتباط الروحي فيهم، ومن هنا نؤكد على الانتساب للعلماء العاملين، والربانيين المخلصين، ونؤكد على الأخذ منهم، ومجالسة الصالحين من عباد الله(١).

فمجالسة العلماء العاملين تزيد الإيمان وتثبت الأقدام على طريق الرحمن.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ واصفًا شيخه شيخ الإسلام: وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، وما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرةُ النعيم على وجهه، وكُنّا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظُّنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحًا وقوةً ويقينًا وطمأنينة(٢).

ومن عوامل الثبات على الحق الثقة بنصر الله - عَزَّ وَجَلَّ - وبوعده:

وقد كان النبي ﷺ يبث عوامل الثقة في نفوس أصحابه، وكان القرآن يتنزل على النبي ﷺ والصحابة يُعذبون في ربوع مكة يبشرهم بالنصر والتمكين وهزيمة المشركين، كما نزل على النبي ﷺ بمكة: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، وتحقق هذا الوعد الصادق في أول لقاء بين الكفر والإيمان في يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، ولما ذهب خَبَّاب بن الأرت يشكو إلى النبي ﷺ ما لقي من تعذيب بَيَّن النبي ﷺ له أن أصحاب الدعوات لابد لهم من الفتنة والابتلاء، وزاده تثبيتًا على الحق بتبشيره بنصر الإسلام، واكتمال أمره فقال ﷺ: «**والله**

(١) «الأساس في السنة وفقهها» (٢/ ٢/ ١٠٤٦) دار السلام.

(٢) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» لابن القيم بتحقيق مصطفى العدوي [٧٦] ط. دار الصحابة.

ليتُمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»(١).

وقد كان من بركة تربية النبي ﷺ للصحابة على الثقة بنصر الله - ﷻ - ووعده أن المنافقين كانوا يتهمون الصحابة بالغرور لشدة ثقتهم بنصر الله ﷻ، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٩].

قال الله ﷻ: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧].

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧٣].

ومن عوامل ثبات المؤمنين على الحق معرفة زيف الباطل:

فإنه ينتفش ويظهر كأنه محيق ظاهر، فإذا واجه الحق الثابت فإنه سرعان ما يزول، وتذهب عينه وأثره، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الفتح: ٢٢].

فالحق يستمد قوته وثباته من الله ﷻ، والباطل باطل زائف زائل، فإنه من كيد الشيطان، وقد قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦].

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

فدولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى أن تقوم الساعة، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [آل عمران: ١٩٦].

ومن عوامل الثبات على الحق الدعاء فإنه من أعظم أسباب الخير في الدنيا والآخرة:

والمؤمن إذا تعرض للفتنة والابتلاء أول ما يتبادر إلى ذهنه وقلبه أن يلجأ إلى الله - ﷻ - الذي بيده مقاليد كل شيء، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ

(١) رواه البخاري (٧/ ٢٠٢) مناقب الأنصار، وأحمد (٥/ ١٠٩).

فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

وأخبر الله - ﷻ - عن أصحاب طالوت فقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٥٠-٢٥١].

وانظر إلى الغلام في قصة أصحاب الأخدود وهو يلجأ إلى الدعاء ويقول: «اللهم اكفنيهم بما شئت»[(١)]، فينجيه الله من كيد الملك الكافر.

ودعاء المؤمن في شدة الأزمات والشدائد غالبًا ما يكون دعاء مضطر إلى الله - ﷻ - ورحمته، قد يئس من المخلوقين، وقد قال الله ﷻ: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢].

وكان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[(٢)].

وهذا يوسف عليه السلام لما استعانت عليه المرأة بنساء المدينة استعان عليهن بالله - ﷻ - فقال: ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف: ٣٣].

ومن عوامل الثبات على الحق الدعوة إلى الله ﷻ:

لأن الداعي إلى الله - ﷻ - مُتَّبع للنبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف: ١٠٨].

واتِّبَاع الرسول ﷺ من أعظم عوامل الثبات، وكذا الداعي إلى الله - ﷻ - يثبت في قلبه المعاني التي يدعو إليها: فمنها الصبر، والتوكل، والثقة بنصر الله،

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا إن شاء الله.

(٢) رواه الترمذي [٣٥٢٢] الدعوات، وقال: هذا حديث حسن، وصححه الألباني.

ومحبة الله ﷻ، والإخلاص له، والدعوة إلى اتباع سنة نبيه ﷺ، وكذا القصص القرآني، والقصص النبوي، وكلما ازدادت هذه المعاني الإيمانية رسوخًا في قلب المؤمن يزداد ثباتًا على الحق ورسوخًا فيه، والجزاء كذلك من جنس العمل، فكما يدعو غيره إلى الحق والتمسك به، والاعْتزاز بالانتساب إليه، فالله - ﷻ - يوفقه إلى مزيد من التمسك بالحق والثبات عليه، والله الموفق للطاعات والهادي لأعلى الدرجات.

ومن عوامل الثبات على الحق تعلم العلم النافع:

فلاشك في أن العلماء هم أقوى الناس في مواجهة فتن الشبهات والشهوات، كما قال بعضهم: إذا أقبلت الفتنة عرفها كل عالم، فإذا أدبرت عرفها كُل جاهل.

وقد وسم الله - ﷻ - أهل المعاصي بالجهل في كتابه كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ [الزمر: ٦٤].

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

فأهل الجهل هم وقود كل فتنة، فالذي يجهل الحق بأدلته من الكتاب والسنة عرضة للفتن، وإن كان منقادًا في الظاهر لأهل الحق، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في وصف علماء السوء: «أو منقادًا لأهل الحق لا بصيرة له في أحِنَّائه ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة»، فنسأل الله تعالى أن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح، وأن يفتح علينا أبواب رحمته وفضله[1].

(ب) مواقف إيمانية في الثبات على الحق

١- موقف السحرة في الثبات على الحق:

والسحرة هم الذين أتى بهم فرعون من أجل أن يبرهن للناس على أن موسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - ما هو إلا ساحر، فأرسل في المدائن حاشرين يأتون بكل

(١) أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٩-٨٠).

سَحَّارٍ عليم، وقيل للناس: هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين، وأتى السحرة بهممهم الدَّنيئة ونظرتهم القاصرة، وحبهم للشهوات والأعراض الدنيوية يقولون لفرعون: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣].

وفرعون يعرف طبائع هذا الصنف من البشر، إنهم الذين يعضدون مُلكَه، ويحمون سُلطانه، ويعملون في دواوينه، فيقول لهم فرعون مطمئنًا لهم ومبشرًا: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٤]، أي: لكم ما تشتهون من الأموال والعلاوات، ولكم كذلك من الرتب والدرجات ما تتطلع إليه نفوسكم، وتطلبه عقولكم، فلما اطمأن السحرة على مصالحهم الدنيوية: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]، فَخيَّروا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إظهارًا لتفوقهم وجلادتهم، فلم يبالوا بتقدمه أو تأخره ﴿قَالَ أَلْقُوا﴾ وهذا من آداب المناظرة، أن يطلب المناظر من خصْمه أن يلقي بحجته أولًا، ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وفي موطن آخر قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٧-٦٩].

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧]، فانقلبت عصا موسى إلى حيةٍ كبيرة عظيمة، وإذا بها تبتلع حبال السحرة وعصيانهم التي خُيِّل للناس من سحرهم أنها تسعى، والسحرة سحرة، يعلمون أن ما أتى به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس من السحر، وإنما هو معجزة نبي، عند ذلك ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٠-١٢٢].

والطواغيت والجبابرة كما أنهم يتحكمون في ظاهر العباد فيقتلون من أرادوا، ويسجنون من أرادوا، ويبعدون من أرادوا، يظنون أن لهم سيطرة وهيمنة كذلك على بواطن العباد، فلا يجوز لهم أن ترتعش قلوبهم بالإيمان، أو تتحرك وتهتز بمحبة الرحمن

إلا بعد إذن الطواغيت، فقال فرعون متهددًا متوعدًا: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٣-١٢٤]، وهكذا الطواغيت في كل زمان ومكان، يلجأون إلى ميدان البطش والتنكيل إذا هزموا في ميدان المناظرة والبرهان العملي.

وانظر إلى السحرة بعد أن تحركت قلوبهم بالإيمان كيف صاروا أصحاب عزيمة وأبطال مواقف يرفعون راية الإيمان، ويضحون بأنفسهم، ولا يتنازلون عن الرتبة التي رفعهم الله إليها بالإيمان، يقول لهم فرعون: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٤-١٢٥]، وقالوا في موضع آخر: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢].

كيف تغيرت القلوب بالإيمان، وكيف تغيرت الأقوال والأفعال بالإيمان، وكيف تغيرت الأهداف والتصورات بالإيمان، ألم أقل: إن الإيمان قوة عظيمة، ونعمةٌ كبيرةٌ، تغير الأقوال والأعمال والأهداف.

قال الأستاذ سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (وهو أستاذ في تحليل المواقف الإيمانية):

إنه التعذيب والتشويه والتنكيل وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق الذي لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان، وعدة الباطل في وجه الحق الصريح.

ولكن النفس البشرية حين تستعلن فيها حقيقة الإيمان، تستعلي على قوة الأرض، وتستهين ببأس الطغاة، وتنتصر فيها العقيدة على الحياة، وتحتقر الفناء الزائل إلى جوار الخلود المقيم، إنها لا تقف لتسأل ماذا ستأخذ وماذا ستدع، ماذا ستقبض وماذا ستدفع؟ ماذا ستخسر وماذا ستكسب؟ وماذا ستلقى في الطريق من صعاب وأشواك وتضحيات؟ لأن الأفق المشرق الوضيء أمامها هناك، فهي لا تنظر إلى شيء في الطريق.

إلى أن قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية، بإعلان إفلاس المادية التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز، وتمنى بالقرب من السلطان، هي ذاتها التي تستعلي على فرعون، وتستهين بالتهديد والوعيد.

ويذهب التهديد ويتلاشى الوعيد، ويمضي الإيمان في طريقه لا يلتفت ولا يتردد ولا يحيد[1].

٢- موقف الراهب وجليس الملك والغلام وجماعات المؤمنين:

هذه القصة قصة أصحاب الأخدود التي قص الله - عَزَّ وَجَلَّ - علينا خاتمتها في سورة البروج، وبين لنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدايتها كما في صحيح مسلم، قصة من قصص الإيمان، مليئة بالمواقف الإيمانية الكريمة، التي يظهر فيها بجلاء قيمة الإيمان، واستعلاء أهله على التخويف والتعذيب.

عن صهيب أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ.**

فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ اللَّهُمَّ: إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ.

فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ! أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ

(١) «في ظلال القرآن» (٣/ ١٣٥١، ١٣٥٢) باختصار.

وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي. فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي الله، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِالله دَعَوْتُ الله فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِالله فَشَفَاهُ الله.

فَأَتَى المَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ قَالَ: رَبِّي قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ الله، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ! قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي الله، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ المَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَوَضَعَ المِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ.

ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ لَهُمْ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الجَبَلَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمْ الجَبَلُ فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى المَلِكِ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ الله، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِمْ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى المَلِكِ.

فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ الله. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ضَعْ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ الله رَبِّ الْغُلَامِ ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى

جِذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ ثُمَّ رَمَاهُ، فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ.

فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ، وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الحَقِّ»[1].

هذه القصة التي سلّى الله - ﷻ - بها نبيه ﷺ والصحابة الكرام وهم يعانون أشد ألوان العذاب بمكة، مليئة بالمواقف الإيمانية، وما أحوج الدعاة وعموم الناس إلى معرفة هذه المواقف، حتى يزدادوا تمسكًا بدين الله ﷻ، وصبرًا على الدعوة إليه، وهي تبين قيمة الإيمان وحرص المؤمن على دينه، ومحافظته على يقينه، أنه يتمسك بالإيمان، ولو وضع المنشار في مفرق رأسه، كما كان من الراهب وجليس الملك، ويرضى أن يلقى في نيران الدنيا، إذا كان يفدي بذلك دينه، ويحافظ على يقينه.

وانظر إلى الغلام الذي يضحي بنفسه حتى تنتشر دعوته، وتعلو رايته، إنها مواقف إيمانية عظيمة متتابعة يستأنس بها المؤمن في سيره إلى الله ﷻ، وما أحوجنا في مثل تلك الأزمنة الغابرة إلى هذه المواقف الإيمانية، والقصة تبين بجلاء انتصار الإيمان، واستعلاء أهله عن كل ما يراد بهم حتى لو طرحوا في النار.

قال سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ: كذلك تنتهي رواية الحادث، وقد ملأت القلب بالروعة، روعة الإيمان المستعلي على الفتنة، والعقيدة المنتصرة على الحياة، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم، وجاذبية الأرض، فقد كان في مُكْنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة، وكم كانت

(١) رواه مسلم (١٨/ ١٣٠-١٣٣) الزهد، وابن حبان (٣/ ١٥٤-١٥٧) رقم [٨٧٣] الإحسان.

البشرية كلها تخسر! كما كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير؛ معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد، إنه معنى كريم جدًا، ومعنى كبير جدًا، هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض، ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم، وينتصر هذا المعنى الكبير الذي تزكيه النار، وبعد ذلك لهم عند ربهم حسابٌ ولأعدائهم الطاغين حساب[(١)].

ولله در صاحب الظلال، وقد فني جسده كما يفنى جسد كل من فارق الدنيا ولكن تبقى كلماته تشع إيمانًا، وتحيا بها قلوب وتسعد بها نفوس، إنه يكتب هذه الكلمات قبل أن يقضي نحبه، وينتقل إلى ربه، وتخرج لنا الكلمات من خلف القضبان:

أخي أنت حُرٌّ وَراء السدود ... أخي أنتَ حرٌ بتلك القُيود
إذا كُنت بالله مُسْتَعْصِمًا ... فماذا يَضيرك كَيْدُ العبيد
أخي ستبيد جُيُوش الظلام ... ويُشرقُ في الكَونِ فجرٌ جَديد
أخي إن نَمُتْ نلْقَ أَحْبَابَنَا ... فَرَوضَاتُ ربي أُعِدَّت لنا
وأطيَارُها رَفْرفت حَوْلنا ... فطوبَى لَنَا في دِيَارِ الخلود
أخي إن ذرفتَ عَلَيَّ الدُّموع ... وبللت قَبرِي بها في خُشُوع
فأَوْقد لَهُم من رُفَاتي الشمُوع ... وسِيرُوا بها نَحْو مَجْدٍ تَليد

وسوف يأتي غير بعيد موقف من مواقفه الإيمانية في الثبات على الحق.

٣- آسيا امرأة فرعون:

ضرب الله - ﷻ - بإيمانها المثل، وخلّد ذكرها في كتابه العزيز، لأنها أعلنت إيمانها بالله ﷻ، ولم تخف من بطش فرعون اللعين، وصبرت على تعذيبه إياها وآثرت ما عند الله - ﷻ - من نعيم مقيم على نعيم الدنيا الزائف الزائل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

(١) «في ظلال القرآن» (٦/ ٣٨٧٤).

فإن تمردها على فرعون مما يظهر للناس كذبه في ادعائه الربوبية والألوهية، فالربُّ على كلِّ شيءٍ قدير، يملك قلوب الناس ونواصي الناس، وهذا المدعي للربوبية والألوهية لا يملك أقرب القلوب إليه، لا يملك قلب زوجته.

والإله مَن تألهه القلوب محبة وإجلالًا وتعظيمًا، وهذا المدعي تتبرأ منه زوجته وهي أقرب الناس إليه، كما أن الملك الكافر في قصة أصحاب الأخدود كان يدعي الربوبية، والرب يحيي ويميت، وقد عجز هذا الكافر المتكبر عن قتل الغلام، حتى فعل ما أمره به الغلام، وكما أن المسيح الدجال الذي يأتي في آخر الزمان يزعم الربوبية، وشواهد النقص والقصور على وجهه؛ فهو أعور، والرب يتصف بكل كمال، وينزه عن كل نقص ومحال، وهو عاجز عن إزالة هذا العَوَر، وكذا مكتوب بين عينيه: (ك ف ر) يقرأها كل مؤمن قارئ وغير قارئ، وهو عاجز عن إزالة هذا الشاهد بكفره، وكذا كل من يدعي الربوبية والألوهية كذبًا وزورًا يفضحه الله ﷻ، ويظهر للناس عجزه ونقصه وعيبه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن فرعون أوتد لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها، فكان إذا تفرقوا عنها ظَلَّلتْها الملائكة، فقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١] فكشف لها عن بيتها في الجنة(١).

قال الدكتور عمر الأشقر: وقف بعض النساء مواقف إيمانية متميزة عبر التاريخ، وبعض هذه المواقف يعجز عنها الرجال، ومن هؤلاء آسيا ملكة مصر امرأة فرعون، فقد جادت بنفسها لله ﷻ، وآثرت ما عنده، وتخلت عن الدنيا، وصبرت على عذاب زوجها لها، حتى فاضت روحها إلى بارئها(٢).

واستحقت امرأة فرعون بأن يضرب بها المثل لهذا الموقف الإيماني، ولأنها كانت تحت ملك ادعى الربوبية والألوهية، ومع ذلك كفرت بربوبيته وإلهيته، وآمنت بالله

(١) رواه أبو يعلى (٦/ ٣٥) رقم [٢٥٠٨] وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم [٢٥٠٨].
(٢) «صحيح القصص النبوي» [٢٧٩] ط. دار النفائس.

ربِّ العالمين، ولأنها كانت تعيش في قصر فرعون فآثرت عند الله بيتًا في الجنة على قصر فرعون.

كما استحقت امرأة نوح وامرأة لوط بأن يضرب بهما المثل في الكفر؛ لأنهما كانتا تحت نبيين كريمين، والزوجة يجب عليها طاعة زوجها فكيف إذا كان زوجها نبيًا من أنبياء الله طاعته طاعة لله ﷻ، فخانتاهما - أي: في الطاعة والإيمان - فقيل لهما: ادخلا النار مع الداخلين.

وفي هذا الحديث لطف الله - ﷻ - بعباده المؤمنين، الذين يبذلون في الله - ﷻ - ويثبتون على طاعته، فكانت الملائكة تظلها رضي الله عنها، وأراها الله - ﷻ - قصرها في الجنة حتى يزداد إيمانها وثباتها على طاعة الله - ﷻ - كما قال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦]، فالله - ﷻ - يُثبِّت أهل الإيمان، ويُيسر لهم سبيل الزيادة في إيمانهم رحمة بهم، نسأل الله أن يثبت قلوبنا على دينه، يا مُقلب القلوب والأبصار! ثبت قلوبنا على دينك.

٤- ماشطة ابنة فرعون:

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا، أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ! مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا، قَالَ: قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟ قَالَ: بَيْنَمَا هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ سَقَطَتْ الْمِدْرَى مِنْ يَدَيْهَا فَقَالَتْ: بِسْمِ الله، فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟ قَالَتْ: لَا وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ الله، قَالَتْ: أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ فَأَخْبَرَتْهُ فَدَعَاهَا فَقَالَ: يَا فُلَانَةُ! وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ رَبِّي وَرَبُّكَ الله، فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلَادُهَا فِيهَا قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، قَالَ: وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ وَتَدْفِنَنَا.**

قَالَ: ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنْ الحَقِّ.

قَالَ: فَأَمَرَ بِأَوْلَادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا وَاحِدًا وَاحِدًا إِلَى أَنْ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ، وَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ قَالَ: يَا أُمَّهْ! اقْتَحِمِي؛ فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَاقْتَحَمَتْ».

قال ابن عباس: تكلم أربعةٌ صغار: عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصاحب جريج، وشاهد يوسف، وابن ماشطة ابنة فرعون(١).

قال الدكتور عمر الأشقر حَفِظَهُ اللَّهُ:

كانت هذه المرأة تعيش في قصر الملك، وكانت تعنى بابنته فتمشط شعرها، وتقوم على أمرها، ومن كان هذا عمله لابد أن يكون مُكرَّمًا مُعَزَّزًا مرفهًا، ولكن الإيمان غزا قلبها، وملك عليها أمرها، كما غزا قلب الملكة زوجة فرعون، فالإيمان يجد له طريقًا إلى قلوب الأغنياء، كما يجده إلى قلوب الفقراء، عندما يريد الله بعبده خيرًا.

وقد كتمت هذه المرأة إيمانها كما كتمته زوجة فرعون، وكتمه مؤمن آل فرعون ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ [غَافِر: ٢٨] ولكن مهما حاول المرء أن يكتم ما يجري في أعماق نفسه، فلابد أن تدل عليه تصرفاته وسمته وحركاته وأقواله، ففي بعض الأوقات يغفل الإنسان عن نفسه فيتصرف على سجيته(٢).

ثم ذكر حَفِظَهُ اللَّهُ في عِبر الحديث وفوائده ما ملخصه:

١- بيان ما يفعله الإيمان بالنفوس، ففي سبيل الله يستروح المؤمنون العذاب، ويواجهون الطغاة، ولا ينفع في مواجهة المؤمن أشد ألوان الظلم، وأقسى أنواع التعذيب.

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٠٩) وحسنه محققو المسند.

وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٦٥): رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عطاء ابن السائب، وهو ثقة ولكنه اختلط.

وقوله: المِدْرى: أداة يُسرَّح بها الشعر.

بقرة من نحاس: الظاهر أنها إناء كبير من نحاس على هيئة البقرة كانوا يوقدون تحته نارًا حتى يحترق ثم يلقوا فيه من أرادوا.

(٢) «صحيح القصص النبوي» [٢٨٩].

٢- إكرام الله لأوليائه الذين بذلوا أنفسهم رخيصة في سبيله، فقد أعلى الله مقام هذه المرأة، وأكرمها إكرامًا عظيمًا هي وأولادها.

٣- عظم كراهية الكفرة أمثال فرعون للمؤمنين، وخلو قلوبهم من الرحمة عندما يواجهون المؤمنين.

٤- لم تكن هذه المرأة منتحرةً عندما اقتحمت النار، فقد أرادت أن تَغُم فرعون وزبانيته، فبدل أن ترضي غرورهم بتمنعها وصياحها ورفضها الإلقاء في النار، اقتحمتها بنفسها غير هيابة ولا وجلة، فزاد ذلك في غيظهم وقهرهم، وأبانت لهم حقارة أنفسهم، ففي الدنيا من لا يقبل المذلة ويأبى أن يطأطئ رأسه للظلم والظالمين.

٥- الجزاء من جنس العمل، فهذه المرأة لما انبعثت روائح احتراق جسدها وجسد أولاها، جعل الله لها رائحةً طيبةً عطرة تفوح منها ومن أولادها في السموات العُلى.

٦- يُثبت الله عباده الذين شاء لهم الكرامة في المواقف الصعبة، فقد أنطق الله الطفل الرضيع فأمر أمه بالثبات، وبذلك قطع ما دار في خلدها من وساوس الشيطان التي كادت تهلكها[١].

فهذا موقف من المواقف الإيمانية في الثبات على الحق، لأن المرأة أصرت على موقفها فقالت لابنة فرعون: ربي ورب أبيك الله، فقالت ابنة فرعون: أخبره؟ قالت: نعم، ثم قال لها فرعون: وإن لك ربًا غيري؟ قالت: نعم ربي وربك الله، ثم هي لم تتراجع عندما هددها فرعون بالعذاب، وعندما قذف أبناءها الواحد تلو الآخر في النار، وهي ثابتةٌ على الحق، متمسكة بدينها، متعززة بربها، وكادت أن تتقاعس - أي: تتراجع - عندما هموا بقذف رضيعها، فأنطق الله الصبي وقال لها: [يا أُمه! اقتحمي؛ فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة» وفيه لطف الله - ﷻ - بالمؤمنين وتثبيته إياهم على الحق بالكرامات

(١) باختصار من «صحيح القصص النبوي» (٢٩٣-٢٩٤).

وخوارق العادات، وهو شبيه بنطق الغلام في قصة أصحاب الأخدود ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١].

٥- بلال بن أبي رباح رضي الله عنه:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعَمَّار، وأُمُّهُ سُمَيَّة، وصهيب، وبلال، والمقداد رضي الله عنهم، فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعَمِّه، وأما أبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد أتاهم على ما أرادوا إلا بلالًا، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شِعاب مكة، وهو يقول: أحدٌ أحدٌ[(١)].

وقصص الصحابة رضي الله عنهم في الثبات على الحق والبذل والتضحية كثيرة عظيمة، مما يدل على قوة إيمانهم، وعظيم توكلهم وزهدهم رضي الله عنهم.

٦- خباب بن الأرت رضي الله عنه:

عن الشعبي قال: دخل خباب بن الأرت رضي الله عنه على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأجلسه على متكئه فقال: ما على الأرض أحدٌ أحق بهذا المجلس من هذا إلا رجل واحد، قال له خباب: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: بلال، فقال خباب: ما هو بأحق مني، إن بلالًا كان له في المشركين مَنْ يمنعه الله به، ولم يكن لي أحدٌ يمنعني، فلقد رأيتني يومًا أخذوني فأوقدوا لي نارًا ثم سلقوني فيها، ثم وضع رجل رِجْلَهُ على صدري، فما اتَّقَيْتُ الأرض - أو قال: برد الأرض - إلا بظهري، قال: ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد بَرَصَ[(٢)].

وعن خباب رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسدٌ ببردة وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمرٌ وجهه، فقال: «**قد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب، ما**

(١) رواه الحاكم (٣/ ٢٨٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح، ورواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٤٩)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (١/ ١٤١).

(٢) ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ١١٧).

يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»[(١)].

النبيُّ ﷺ لا يدخر جهدًا في نصح أصحابه وتربيتهم على الصبر والثبات والثقة بنصر الله - ﷻ - ووعده، فقد أتاه خباب بعد أن عُذِّبَ هذا العذاب الأليم، والنبي ﷺ يُعلِّمه بل يُعلِّمُ الأمة كلها أن أصحاب الدعوة لابد لهم من الابتلاء، فإن ثبتوا على الحق وآثروا مراد الشرع نصرهم الله - ﷻ - وأعزهم، فلا يتم التمكين إلا بعد المحنة والصبر والثبات، نسأل الله العافية والثبات.

٧- خُبيب بن عدي رضي الله عنه:

وكان مع عاصم بن ثابت رضي الله عنه في يوم الرجيع، وهو الذي عذبه المشركون عذابًا شديدًا ثم قالوا له: أتحب أن محمدًا مكانك، وأنك معافى في أهلك ومالك؟ فقال: «والله ما أحبُّ أنني معافى في أهلي ومالي ويُشاكُ محمد ﷺ بشوكة».

وفي ذلك قيل:

أسرتْ قُرَيشٌ مُسْلِمًا ... فَمَضى بِلاَ وَجَلٍ إلى السَّيَّافِ
سَألوهُ هَلْ يُرضيكَ أنكَ سالمٌ ... ولَكَ النَّبِيُّ فِدَى مِن الإتْلاَفِ
فَأَجَابَ كلاّ لا سَلِمْتُ مِنَ الرَّدَى ... وَيُصَابُ أَنفُ مُحَمَّدٍ بِرُعَافِ

وكان عاصم بن ثابت رضي الله عنه هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلما أسر في يوم الرجيع اشتراه بنو الحارث بن عامر، فمكث عندهم أسيرًا، حتى إذا أجمعوا قتله استعار مُوسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها، فأعارته، قال: فغفلت عن صبي لي فدرج إليه، فأتاه فوضعه على فخذه فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذاك منّي، وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك - إن شاء الله تعالى - وكانت تقول: ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنبٍ وما بمكة يومئذٍ ثمرٌ، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزقًا رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال:

(١) تقدم تخريجه.

دعوني أصلي ركعتين، ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو.

ثم قال: اللهم أحصهم عددًا، ثم قال:

مَـا إِنْ أُبَـالِي حِـينَ أُقْـتَـلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ شِـقٍّ كَـانَ للهِ مَصْرَعِي

وَذَلِـكَ فِي ذَاتِ الإِلَـهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِك عَـلَى أَوْصَـالِ شِلْوٍ مُمَـزَّعِ

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله[١].

٨- سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ والحجاج الثقفي، لعنة الله على الظالمين:

كان سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ ممن خرج على الحجاج في فتنة ابن الأشعث، وكان يقول: قاتلوهم على جورهم في الحكم، وخروجهم من الدين، وتجبرهم على عباد الله، وإماتتهم الصلاة، واستذلالهم المسلمين، فَلَمَّا انهزم أهل الدير لحق بمكة، واختفى مدة طويلة من الحجاج الثقفي، حتى ظفر به خالد بن عبد الله القسْرِي أمير مكة، وأرسل به إلى الحجاج مع إسماعيل بن أوسط البجلي.

عن أبي صالح قال: دخلت على سعيد بن جبير حين جيء به إلى الحجاج فبكى رجل فقال سعيد: ما يبكيك؟ قال: لما أصابك، قال: فلا تبكِ كان في علم الله أن يكون هذا ثم تلا: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ [الحديد: ٢٢][٢].

وعن سالم بن أبي حفصة قال: لما أتى سعيد بن جبير الحجاج قال: أنت شقي بن كسير، قال: أنا سعيد بن جبير، قال: لأقتلنك، قال: أنا إذًا كما سمتني أمي، قال: دعوني أصلي ركعتين، قال: وجهوه إلى قبلة النصارى، قال: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ

(١) القصة بطولها رواها البخاري (٧/ ٣٧٨-٣٧٩) المغازي، وأبو نعيم (١/ ١١٢) وذكرناها بشيء من التصرف.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٣٧).

ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البَقَرَة:١١٥]، قال: إني أستعيذُ منك بما عاذت به مريم، قال: وما عاذت به مريم؟ قال: قالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴾ [مَرۡيَم:١٨].

قال سليمان التيمي: كان الشعبي يرى التقية، وكان ابن جبير لا يرى التقية، وكان الحجاج إذا أتي بالرجل - يعني ممن قام عليه - قال له: أكفرت بخروجك عَلَيَّ؟ فإن قال: نعم خَلَّى سبيله.

فقال لسعيد: أكفرت؟ قال: لا، قال: اختر أي قتلة أقتلك.

قال: اختر أنت فإنَّ القِصاص أمَامَك[١].

وعن داود بن أبي هند قال: لما أخذ الحجاج سعيد بن جبير قال: ما أراني إلا مقتولًا، وسأخبركم، إني كنت أنا وصاحبان لي دعونا الله حين وجدنا حلاوة الدعاء، ثم سألنا الله الشهادة، فكلا صاحِبَي رزقها، وأنا أنتظرها، قال: فكأنه رأى أن الإجابة عند حلاوة الدعاء.

قال الذهبي: ولما علم من فضل الشهادة ثبت للقتل، ولم يكترث، وإلا عامل عدوه بالتقية المباحة له رحمه الله تعالى.[٢]

قال الذهبي: ويروى أن الحجاج رؤي في النوم، فقيل: ما فعل الله بك؟ فقال: قتلني بكل قتيلٍ قِتلة، وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة.

وروي أنه لما احتُضِر كان يغُوص ثم يفيق، ويقول: مالي ومالك يا سعيد بن جبير[٣].

وقال ابن عيينة: لم يقتل بعد سعيد إلا رجلًا واحِدًا[٤].

٩- حطيط الزيات رَحِمَهُ ٱللَّهُ والحجاج الثقفي، لعنة الله على الظالمين:

جيء بحطيط الزيات رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الحجاج، فلما دخل عليه، قال: أنت حطيط.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٣٨).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٤٠).
(٣) «تاريخ الإسلام» (٦/ ٣٦٩).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٣٢٨).

obeikandl.com

قال: نعم.

قال حطيط: سل عَمَّا بدا لك؛ فإني عاهدت الله عند المقام على ثلاث خصالٍ: إن سُئلت لأصدقن، وإن ابتليت لأصبرن، وإن عوفيت لأشكرن.

قال الحجاج: فما تقول فِيَّ؟

قال: أقول فيك: إنك من أعداء الله في الأرض، تنتهك المحارم، وتقتل بالظُّنَّة.

قال: فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟

قال: أقول: إنه أعظم جُرْمًا منك، وإنما أنت خطيئة من خطاياه.

فأمر الحجاج أن يضعوا عليه العذاب، إلى أن شقق له القصب، ثم جعلوه على لحمه، وشدوه، ثم جعلوا يمدون - يستلون - قصبة قصبة حتى انتحلوا لحمه، فما سمعوه يقول شيئًا.

فقيل للحجاج: إنه في آخر رمق.

فقال: أخرجوه فارموا به في السوق.

قال جعفر - وهو الراوي -: فأتيته أنا وصاحب له، فقلنا له: حطيط ألك حاجة؟

قال: شربة ماء.

فأتوه بشربةٍ ثم استشهد، وكان عُمره ثماني عشرة سنة رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

١٠- الإمام أحمد بن حنبل وفتنة القول بخلق القرآن:

لما دعا المأمون بن هارون الرشيد الناس إلى القول بخلق القرآن أجابه أكثر العلماء والقضاة مكرهين، واستمر الإمام أحمد ونفرٌ قليل على حمل راية السنة، والدفاع عن معتقد أهل السنة والجماعة.

قال أبو جعفر الأنباري: لما حمل الإمام أحمد بن حنبل إلى المأمون أُخبرتُ فعبرت الفرات، فإذا هو جالسٌ في الخان، فسلمت عليه، فقال: يا أبا جعفر، تعنَّيْت فقلت: ليس هذا عناء، وقلت له: يا هذا، أنت اليوم رأس الناس، والناس يقتدون بكم، فوالله لئن

(١) «إحياء علوم الدين» (٥/ ٢٥٤).

أجبت ليجيبن بإجابتك خلق كثير من خلق الله تعالى، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت، ولابد من الموت، فاتق الله ولا تجبهم إلى شيء.

فجعل أحمد يبكي ويقول: ما شاء الله، ما شاء الله، ثم سار أحمد إلى المأمون فبلغه توعد الخليفة له بالقتل إن لم يجبه إلى القول بخلق القرآن، فتوجه الإمام أحمد بالدعاء إلى الله تعالى أن لا يجمع بينه وبينه، فبينا هو في الطريق قبل وصوله إليه إذ جاءهم الصريخ بموت المأمون، وكان موته في شهر رجب سنة ثمان عشرة ومائتين فَرُدَّ الإمام أحمد إلى بغداد وحبس، ثم ولي الخلافة المعتصم فامتحن الإمام أحمد وضرب بين يديه.

وكان من خبر المحنة أن المعتصم لما قصد إحضار الإمام أحمد ازدحم الناس على بابه كيوم العيد، وبسط بمجلسه بساطًا، ونصب كرسيًا جلس عليه، ثم قال: أحضروا أحمد بن حنبل، فأحضروه، فلما وقف بين يديه سَلَّمَ عليه، فقال له: يا أحمد! تكلم ولا تخف، فقال الإمام أحمد: والله لقد دخلت عليك وما في قلبي مثقال حبَّةٍ من الفزع، فقال له المعتصم: ما تقول في القرآن؟

فقال: كلام الله قديم غير مخلوق، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

فقال له: عندك حجة غير هذا؟ فقال: نعم، قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ١-٢]، ولم يقل: الرحمن خلق القرآن، وقوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس: ١-٢]، ولم يقل: يس والقرآن المخلوق.

فقال المعتصم: احبسوه، فحبس وتفرق الناس.

فلما كان من الغد جلس المعتصم مجلسه على كرسيه وقال: هاتوا أحمد بن حنبل، فاجتمع الناس، وسمعت لهم ضجةً ببغداد، فلما جيء به وقف بين يديه والسيوف قد جردت، والرماح قد ركزت، والأتراس قد نصبت، والسياط قد طرحت، فسأله المعتصم عما يقول في القرآن.

قال: أقول: غير مخلوق، قال: ومن أين قلت؟ فقال: حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن كلام الله الذي استخص به موسى مائة ألف كلمة وثلاثمائة وثلاث عشرة كلمة، فكان الكلام من الله، والاستماع من موسى**»، ثم قال: قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، فإن يكن القول من الله تعالى، فإن القرآن كلام الله.

وأحضر المعتصم له الفقهاء والقضاة فناظروه بحضرته في مدة ثلاثة أيام، وهو يناظرهم ويظهر عليهم بالحجج القاطعة، ويقول: أنا رجل عَلِمتُ علمًا ولم أعلم فيه بهذا، أعطوني شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حتى أقول به.

وكلما ناظروه وألزموه القول بخلق القرآن يقول لهم: كيف أقول ما لم يُقَلْ؟ فقال المعتصم: قهرنا أحمد، وكان من المتعصبين[1] عليه محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم وأحمد بن دُوَاد القاضي، وبشر المريسي، وكانوا معتزلة قائلين بخلق القرآن، فقال ابن دُوَاد وبشر للخليفة: اقتله حتى نستريح منه، هذا كافر مُضِل، فقال: إني عاهدت الله ألا أقتله بسيف ولا آمر بقتله بسيف، فقالا له: اضربه بالسياط، فقال المعتصم له: وقرابتي من رسول الله ﷺ لأضربنك بالسياط أو تقول كما أقول، فلم يرهبه ذلك، فقال المعتصم: أحضروا الجلادين، فأحضروا، فقال المعتصم لواحد منهم: بكم سوطٍ تقتله؟ قال: بعشرة، قال: خذه إليك، فأخرج الإمام أحمد من أثوابه، وشُد في يديه حبلان جديدان، ولما جيء بالسياط فنظر إليها المعتصم قال: ائتوني بغيرها، ثم قال للجلادين: تقدموا، فلما ضُرب سوطًا قال: بسم الله، فلما ضرب الثاني قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، فلما ضرب الثالث قال: القرآن كلام الله غير مخلوق، فلما ضرب الرابع قال: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

وجعل الرجل يتقدم إلى الإمام أحمد فيضربه سوطين، فيحرضه المعتصم على التشديد في الضرب، ثم يتنحى، ثم يتقدم الآخر فيضربه سوطين، وهو عند ذلك

(١) أي: من المتعصبين عليه.

يحرضهم على التشديد في الضرب، فلما ضرب تسعة عشر سوطًا قام إليه المعتصم فقال له: يا أحمد! علام تقتل نفسك؟ إني - والله - عليك لشفيق.

قال أحمد: فجعل عجيف ينخسني بقائمة سيفه وقال: تريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وجعل بعضهم يقول: ويلك! الخليفة على رأسك قائم، وقال بعضهم: يا أمير المؤمنين دمه في عنقي اقتله، وجعلوا يقولون: يا أمير المؤمنين! إنه صائم وأنت في الشمس قائم، فقال لي: ويحك يا أحمد ما تقول؟ فأقول: أعطوني شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حتى أقول به.

ثم رجع الخليفة فجلس ثم قال للجلاد: تقدم، وحَرِضه على إيجاعه بالضرب، ثم قام الثانية فجعل يقول: ويحك يا أحمد أجبني، قال الإمام أحمد: فجعلوا يقبلون عَلَيَّ ويقولون: يا أحمد، إمامك على رأسك قائم، وجعل بعضهم يقول: من صنع من أصحابك في هذا الأمر ما تصنع؟ قال: وجعل المعتصم يقول: ويحك أجبني إلى شيءٍ فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدي، فقلت: يا أمير المؤمنين! أعطوني شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، حتى أقول به، فرجع المعتصم فجلس وقال للجلادين: تقدموا، فجعل الجلاد يتقدم ويضربني سوطين ويتنحى، وهو عند ذلك يحرضهم على التشديد في الضرب، ويقول: شدوا قطع الله أيديكم.

قال الإمام أحمد: فذهب عقلي، فأفقت بعد ذلك، فإذا الأقياد قد أطلقت عَنّي، فقال رجلٌ ممن حَضَر: إنا كببناك على وجهك وطرحنا على ظهرك بارية[١] ودسناك، قال: فما شعرت بشيءٍ من ذلك، فأتوني بسويق فقالوا لي: اشرب وتقيأ، فقلت: لست أفطر، ثم جيء بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم، فحضرت صلاة الظهر، فتقدم ابن سماعة فصلى، فلما انفتل من الصلاة قال لي: صليت والدم يسيل في ثوبك، فقلت: قد صلى عمر رضي الله عنه وجرحه يثعب دمًا[٢].

(١) أي: حصير.

(٢) قوله: يثعب: أي يسيل.

ولما ولي الواثق بعد المعتصم، وهو أبو جعفر هارون بن المعتصم وكانت ولايته في ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين لم يتعرض للإمام أحمد في شيء إلا أنه بعث إليه يقول: لا تساكنّي بأرضٍ، وقيل: أمره أن لا يخرج من بيته، فصار الإمام أحمد يختفي في الأماكن، ثم صار إلى منزله فاختفى فيه بعد أشهر إلى أن مات الواثق.

ولما ولي المتوكل بعد الواثق - وهو أبو الفضل جعفر بن المعتصم - وكانت ولايته في ذي الحجة سنة اثنين وثلاثين ومائتين، خالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد، وطعن عليهم فيما كانوا يقولونه من خلق القرآن، ونهى عن الجدال والمناظرة في الأداء، وعاقب عليه، وأمر بإظهار الرواية للحديث، فأظهر الله به السنة، وأمات به البدعة، وكشف عن الخلق تلك الغُمَّة، وأنار به تلك الظلمة، وأطلق من كان اعتقل بسبب القول بخلق القرآن، ورفع المحنة عن الناس[1].

وانتقم الله - ﷻ - من كل خصوم الإمام أحمد المبتدعين، الذين سعوا في أمره، وخذلهم، ونصره عليهم بحوله وقوته، وبركة كتابه العزيز، وسنة نبيه محمد ﷺ.

وشرع المتوكل في الإحسان إلى الإمام أحمد وإكرامه، فبكى الإمام وقال: أَسْلَمُ من هؤلاء منذ ستين سنة، فلما كان آخر العمر ابتليت بهم.

فرحم الله إمامنا وإمام الدنيا أحمد بن حنبل، الذي أُدْخِلَ الكير فخرج ذهبًا أحمر، وابتلي بالضراء فصبر، وبالسراء فشكر، ووقف هذا الموقف الإيماني كأنه جبل شامخ، تتكسر عليه المحن، وضرب لنا مثالًا في الثبات على الحق.

قال علي بن المديني: أَيَّدَ الله هذا الدين برجلين لا ثالث لهما: أبو بكر الصديق يوم الردة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة.

وقيل لبشر الحافي: ألا تخرج فتقول كما قال أحمد بن حنبل؟

فقال: أتريدون أن أقوم مقام الأنبياء؟!

---

(١) باختصار من «المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد» (٣١-٤٠) لأبي اليمن العليمي ط. المدني.

فما أبدع هذه المواقف الإيمانية في الثبات على الحق، فانظر كيف حَفِظ هذا الإمام للأمة عقيدتها، وكيف دفع من نفسه، ومن عمره حتى تظل عقيدة أهل السنة صافيةً خالصةً بيضاء، كما تركنا عليها رسول الله ﷺ، واستحق الإمام أحمد بهذا الموقف الإيماني لقب إمام أهل السنة، والله - ﷻ - يرحمه، ويجزيه عن أمة محمد ﷺ وعقيدتها خير الجزاء.

١١- الأستاذ سيد قطب رحمه الله وثباته على الحق:

وسيد قطب علم من أعلام الفكر الإسلامي، ورجل من رجالات الصحوة المعاصرة، فتح الله ﷻ عليه أبواب الخير والفهم، ورفعه فوق كثير من خلقه، صاحب مواقف إيمانية صادقة، وجهاد وبذل وتضحية، ونصيحة للأمة، أثرى التراث الإسلامي بروائع من الأدب والفكر، وله باع يعرفه به كلُّ أديبٍ وكلُّ خطيب، قضى جزءًا من عمره ليس بالقصير بين جدران الزنازين، وذاق ألوان العذاب والتنكيل، وختمت حياته على خشبة المشنقة، نحسبه من أهل الشهادة والسعادة، ولا نزكي على الله أحدًا، ولا نطيل بذكر ترجمته، فنحن لا نترجم هنا حياة الأبطال، ولكن نلقي الضوء على المواقف الإيمانية التي يرفع فيها المؤمنون راية الإيمان، ويتعززون بدين الرحمن، فيرفعهم الله - ﷻ - في الدنيا والآخرة.

ونبدأ بذكر هذه الرؤيا التي رآها الأستاذ، ثم فسرها بعد ذلك الزمن والواقع:

روى الصحفي «محمود الركابي» حوارًا عجيبًا بينه وبين الأستاذ سيد رحمه الله في منزل الأستاذ سيد قبل اعتقاله.

قال الركابي: قلت له: الحمد لله على السلامة، ما شاء الله، صحتك جيدة، ولم يبق إلا العروسة.

فضحك سيد جيدًا، ثم قال: أية عروسة تقصد؟

قلت: لكلتيهما خلقنا.

وتحدثنا قليلًا، ثم سألني فجأة: هل لك في تأويل الأحلام؟[١] لقد رأيت البارحة كأن ثعبانًا أحمر يلف نفسه حولي ثم يقترب، فاستيقظت من ساعتها ولم أَنَمْ.

قلت: يا سيدي هذه هدية سيقدمها لك أحد المؤمنين، وهي ملفوفة لفات بخيط أحمر، وإن شئت أحضرتها لك الآن فخذها واستأنف النوم.

قال: ولماذا لا يكون تفسيرها أن أكون أنا الهدية المقدمة للمؤمنين.

قلت: أليس بقاء الصالحين أنفع للدعوة الإسلامية؟

قال: ليس دائمًا، بل ربما كان ذهابهم أنفع! وأنا لا أتعمد التهلكة ولكن يجب أن نتعمد الثبات، مع علمنا أن في الثبات التهلكة.

قلت: يا رجل لا تتشاءم هكذا، فالقوم يسيرون نحو الاعتدال.

قال: ستعلم[٢].

وكان الاعتقال الأول لسيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مطلع عام ١٩٥٤م، وبقي معتقلًا مع قيادات الإخوان المسلمين ثلاثة أشهر.

ثم اعتقل الاعتقال الثاني بعد مسرحية حادث المنشية في ٢٦/ ١٠/ ١٩٥٤م مع ألوف الإخوان الذين اتهموا بمحاولة اغتيال جمال عبد الناصر.

قدم سيد قطب للمحاكمة عام ١٩٥٥م وحكمت عليه المحكمة بالسجن خمسة عشر عامًا، وتوسط الرئيس العراقي «عبد السلام عارف» لدى جمال عبد الناصر للإفراج عن سيد قطب، وأفرج عنه بعفو صحي عام ١٩٦٤م.

ثم أعيد اعتقاله في ٩/ ٨/ ١٩٦٥م وصدر حكم الإعدام عليه في ٢١/ ٨/ ١٩٦٦م وتم تنفيذ حكم الإعدام فيه، وفي أخويه محمد يوسف هواش، وعبد الفتاح إسماعيل في

---

(١) الأولى أن يقال: «تأويل الرؤى» لأن الحلم من الشيطان والرؤيا من الله عَزَّوَجَلَّ.

(٢) «ملحق جريدة النهار البيروتية» الأحد (١٨/ ٩/ ١٩٦٦م) ووردت في كتاب «الشهيد سيد قطب» (٦٤، ٦٥) ونقلها صلاح عبد الفتاح الخالدي في كتابه «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد» (٤١٧-٤١٨).

obeikandl.com

سرعة فائقة في ليلة الاثنين ٢٩/ ٨/ ١٩٦٦م، وكان سبب تعجلهم شفاعة الملك فيصل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الإفراج عنه، فتعجلوا في قتله ثم اعتذروا إليه.

وكان سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحس قبل النطق بالحكم بهذه النهاية ويرحب بها، ولا يقبل المساومة على تغيير موقفه حتى تتغير هذه النهاية.

يقول أحمد رائف - وهو أحد الذين سجنوا مع الأستاذ -: وفي مرة من المرات أخذوني مع بعض الزملاء لنحضر الطعام من المطبخ، وفي الطريق سنحت فرصة للتحدث مع سيد قطب.

قلت له فيما قلت: ماذا تنتظر؟

فقال الرجل لي بابتسامة واثقة نابعة من صدر هادئ مطمئن: «أنتظر الوفود على ربي»(١).

ولله در القائل:

لَعَمْرُكَ إنِّي أَرَى مَصْرعي ... وَلَكِن أَعُدُّ إِليه الخُطا
لَعَمْرُكَ هَذا مَمَاتُ الرجالِ ... فَمَنْ رَام مَوتًا شريفًا فَذَا

وإنما سقنا قصة الأستاذ سيد قطب لهذه المساومات التي أجريت معه حتى يتنازل عن الحق، أو يعترف بأنه لم يكن على الحق، مقابل تخفيف الحكم، وأبى الأستاذ أشد الإباء.

فقد سُووم سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ مساومات كثيرة ليتخلى عن دعوته، ويعتذر عن عمله مع الله ويتبرأ من التنظيم الإخواني الجديد، وطُلِبَ منه أن يكتب سطرًا أو جملة للرئيس عبد الناصر يسترحمه، ويعتذر له، وسوف يخرج من سجنه، ويلغى حكم الإعدام فيه، وتفتح له الدنيا فيأخذ منها ما شاء الله من المناصب والمراكز، والوظائف، والأموال.

واستمرت هذه المساومات حتى الليلة الأخيرة من حياته، واستخدم الطغاة أخته المجاهدة «حميدة» لتضغط عليه ليستجيب لها.

---

(١) «البوابة السوداء» [٢٢٣] نقلًا عن «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد» (٤٦١، ٤٦٢).

تقول: استدعاني حمزة البسيوني - مدير السجن الحربي - إلى مكتبه، وأراني حكم الإعدام والتصديق عليه.

ثم قال لي: إن الحكومة مستعدة أن تخفف هذا الحكم إذا كان شقيقي يجيبهم إلى ما يطلبون.

وقال لي: إن شقيقك خسارة لمصر كلها، وليس لكِ وحدكِ، إنني غير متصور أن نفقد هذا الشخص بعد ساعات، إننا نريد أن ننقذه من الإعدام بأي شكل، وبأي وسيلة.

إن بضع كلمات يقولها ستخلصه من حكم الإعدام، ولا أحد يستطيع أن يؤثر عليه إلا أنت، أنتِ وحدك مكلفة بأن تقولي له هذا.

أنا مكلفٌ أن أبلغه هذا، ولكن لا أحد أفضل منكِ في تبليغه هذا الأمر، بضع كلمات يقولها وينتهي كل شيء.

نريد أن يقول: إن هذه الحركة كانت على صلة بجهةٍ ما، وبعد ذلك تنتهي القضية بالنسبة لك، أما هو فيفرج عنه بعفو صحي! قلت له: ولكنك تعلم - كما يعلم عبد الناصر - أنَّ هذه الحركة ليست على صلة بأي جهة من الجهات.

قال حمزة البسيوني: أنا عارف، وكلنا عارفون أنكم الجهة الوحيدة في مصر التي تعمل من أجل العقيدة، نحن عارفون أنكم أحسن ناس في البلد، ولكننا نريد أن نُخَلِّص سيد قطب من الإعدام!

ونظر إلى صفوت الروبي وقال: خذها يا صفوت إلى أخيها، وذهبت إلى شقيقي، وسلمت عليه وبَلَّغْته ما يريدون منه.

فنظر إلَيَّ ليرى أثر ذلك على وجهي، وكأنه يقول لي: أأنتِ تطلبين ذلك أم هم؟ واستطعت أن أفهمه بالإشارة أنهم هم، وهنا نظر إلَيَّ وقال: والله لو كان هذا الكلام صحيحًا لقلته، ولما استطاعت قوة على وجه الأرض أن تمنعني من قوله، ولكنه لم يحدث، وأنا لا أقول كذبًا أبدًا.

وسأله صفوت: يعني دَه رأيك؟

أجابه سيد: نَعَمْ.

فتركنا صفوت وقال: على العموم تقدروا تقعدوا مع بعض شوية، وأفهمت أخي الحكاية من أولها، وقلت له: إن حمزة البسيوني استدعاني وأراني الإعدام، وطلب مني أن أطلب منك هذا الطلب.

سألني: وأنت تَرضيْن بذلك؟

قلت: لا.

قال: إنهم لا يستطيعون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا، إنَّ الأعمار بيد الله، وهم لا يستطيعون إطالة الأعمار ولا تقصيرها، كل ذلك بيد الله، والله من ورائهم محيط.

ورويت عبارات نسبت لسيد قطب، وأنه أطلقها في هذا الجو، جو المساومات والإغراءات وأنه رَدَّ بها على كل المحاولات التي بذلت معه لزحزحته عن موقفه وتخليه عن دعوته.

سأله أحد إخوانه: لماذا كنت صريحًا كل الصراحة في المحكمة التي تملك رقبتك؟ قال: لأن التورية لا تجوز في العقيدة، وليس للقائد أن يأخذ بالرُّخَص.

ولما سمع الحكم بالإعدام قال: الحمدُ لله، لقد عملت خمسة عشر عامًا لنيل الشهادة.

وعندما طلب منه الاعتذار مقابل إطلاق سراحه، قال: لن أعتذر عن العمل مع الله.

وعندما طلب منه كتابة كلمات يسترحم عبد الناصر، قال: إن إصبع السبابة الذي يشهد لله بالوحدانية في الصلاة، ليرفض أن يكتب حرفًا يُقِرُّ به حكم طَاغية.

وقال ردًا على ذلك الطلب: لماذا أسترحم؟ إن سجنت بحق فأنا أقبل حكم الحق، وإن سجنت بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل[1].

(١) «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد» (١٧٤-٤٧٤) بتصرف واختصار.

وينطبق على استعلائه على المساومات، وثباته على الحق قول الشاعر المجاهد جمال فوزي في ديوانه «الصبر والثبات»:

بَـــاعَ الحَـــيـــاةَ رَخـيْـصَـةً ... لله يـــرجـــو أجْـــرَهَـــا
حَـــتَّـــى طـوتـه سـجـونُـهُـم ... دَهْـــرًا وَفي ظُـلُـمَـاتـهَـا
كَـــم سَـــاوَمُـــوه لِـكَـي يَحيد ... عَـــنِ الـعُـهُـود بـأَسْـرِهَـا
وَلِـــكَـــي يَخُـــونَ كَـتـائِـبًـا ... بَـاعُـوا الـنُّـفُـوسَ لِـربِّـهَـا
وَلِـــكَـــي يـشـوه مـا أضَـــاءَ ... الـــكَـــوْنُ مِـــنْ صَـفَـحَـاتِـهَـا
وَلِـــكَـــي يـكُـون صَـنِـيْـعَـةَ ... الـشـيـطـان بَـــينٌ صُـفُـوفِـهَـا
وأَبَـــى الـكـريـمُ مـبَـاهِـجَ ... الـدُّنْـيـا وَطَـلّـقَ أمْـرَهَـا
وَرَأى الـسُـجُـونَ مَـعَـاقِـلَ ... الأَحْـــرارِ رغْـــمَ قُـيـودِهـا
وأَصَـــرَّ أَنْ يُـعْـلـي نـدَاءَ ... الحـــقِّ في جـنَـبَـاتـهـا
فَـقَـضَـى الـسّـنـينَ الـعَـشْـرَ ... عِـمـلاقًـا كَـشُـمٍّ جِـبـالها
وَطَـوتْـهُ جُـدْرَان الـسُّـجُـونِ ... لـكـي يَـــرى أَهْـــوالَهـــا
كَـــمْ مَـزّقَـتْـهُ سِـيـاطُـهُـمْ ... وَتَـلَـقّـفَـتْـهُ كِـلابُـهـا
حَـتَّـى ارْتَـقَـتْـهُ شَـهَـادَةٌ ... لـيـكـونَ مـــنْ أبْـــرارِهَـــا
وَهُـــنـــاكَ يَـلْـقَـى رَبَّـــهُ ... وَيُـطِـلَّ مِـــنْ عَـلْـيَـائِـهـا[1]

١٢- الشاعر محمد عواد رَحِمَهُ اللَّهُ في السجن الحربي:

إن الأبطال الشجعان الذين يتحلون بالإيمان ينضحون طيبًا، فكلامهم طيب، وهيئتهم طيبة، وسيرتهم طيبة، مَنْ رآهم أحبهم، وَمَنْ سمع عنهم اشتاق إلى رؤيتهم، إنهم يؤهلون للشهادة والسعادة، تنم كلماتهم عن قوة إيمانهم، ورباطة جأشهم، وتشهد مواقفهم بمحبتهم لربهم، والذي معنا بطل من أبطال الإخوان المسلمين جزاهم الله خيرًا على صبرهم وبذلهم وجهدهم، وجهادهم وأقر أعينهم بجنة ربهم، وصحبة نبيهم، إنه

(١) ديوان «الصبر والثبات» لجمال فوزي رَحِمَهُ اللَّهُ (٣٤-٣٦) نقلًا عن «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد» (٤٧٤-٤٧٥).

أحد الأبطال الذين ذاقوا ألوان العذاب في سجون ناصر – لعنةُ الله على الظالمين، وعامله الله بعدله، وقسم لنا من رحمته وفضله – هذه كلماته رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يـا دَعْـــوَةَ الإســـلام لَـــنْ أَنْـســاكِ ... لاَ لَـنْ أَمِـيـلَ عَـلَـى هَـــوَايَ هَـواكِ

يـا دَعْــوةَ الإسْــلامِ نُــورُكِ عَـمَّـنَـا ... والـصُـبـحُ والإشْـــرَاقُ بـعـضُ سناكِ

يَـا دَعْــوَةَ الإسْــلامِ إنّــكِ مَجْـدُنَـا ... وَسَـبِـيـلُـنـا بـالـرغـم مِـنْ أعْــدَاكِ

أَيْـــنَ الأمــيِنُ أَبُــو عُـبْـيَـدةَ فـاتحًـا ... بَــابَ الـعَــدُوّ بجـيـشِهِ الـفـتـاكِ

فَـالـعَـدلُ والإحـسـانُ فِـيْـكِ شَريعة ... وَالـسِّـلْـمُ والإسْـلام مِـنْ أَسْمَـاكِ

لقد امتلأت نفس الشاعر محمد عواد وجيله عزمًا وتصميمًا على الصبر والثبات، والتضحية في سبيل بقاء الدعوة حَيَّةً في النفوس، وكان إيمانهم بربهم حماية لهم من كل خوف، وبقيت الدعوة حَيَّةً في النفوس، وبقي الإخوان تربطهم ببعضهم رابطة الأخوَّة، ويجمع بين قلوبهم الحب حتى في أحلك سنين الظلم.

يقول الأستاذ سليم العفيفي – في حديثه الذي أدلى به إلى جابر رزق –: بعد إلقاء القبض عَلَيَّ صحبوني إلى السجن الحربي، وساقوني مع غيري إلى ساحة التعذيب أمام مكتب العقيد شمس بدران وزبانية السجن الحربي، وبدأ الجلادون يمزقون أجسادنا بالسياط، وكان الوقت ليلًا، وفجأة رأينا صفوت الروبي جلاد السجن الحربي يسوق أمامه شابًا عرفنا أن اسمه محمد عوَّاد، يعمل مدرسًا بوزارة التربية والتعليم، ومن قرية الزوامل محافظة الشرقية، تقدم الجلاد صفوت الروبي من قائد الشرطة العسكرية العميد سعد زغلول عبد الكريم قائلًا في زهو:

هذا هو المجرم محمد عواد... يا أفندم.

لقد سلك الجلادون مع عواد أبشع صور التعذيب التي فاقت في وحشيتها ما فعل على أيدي الأعداء بالمسلمين الأوائل: أمثال عَمّار بن ياسر، وبلال، ومصعب بن عمير وغيرهم.

والحق أن مثل هذه الأساليب الوحشية لم تزد البطل عواد إلا صلابةً، وظهر منه الثبات والمصابرة وقوة الإرادة، وما كان البطل يزيد على قوله وهو يعذَّب: يا مقلِّب القلوب ثبت قلبي... أعنِّي... لا تفتني، وما أن سمعه كبير الجلادين حتى ركله بقدمه، وأخذ سوطًا وأهوى به عليه، وانهال عليه ضربًا، وبعد أن أعياه التعذيب أمره الجلاد أن ينهض، فحاول ولكن لم يَقْوَ... خانته قواه، وحاول مرارًا فلم يستطع.

ونادى الجلاد زبانيته وأمرهم أن يوثقوه بالحبال، ثم سأله: تكلم.. اعترف.

قال: بم أتكلم؟ وعلى أي شيء أَعْترف؟ أن لا أعرف شيئًا.

فأمر الجلاد أن توضع رأسه في الحوض (به ماء قذر) وأن ترضخ في جدار الحوض، وتكرر هذا العمل الإجرامي البشع، حتى اختلط الدم بماء الحوض، وتركوه في الحوض، وما هي إلا لحظات حتى فاضت روحه إلى باريها[1].

والشجاعة صبرُ ساعة، والشهيد لا يذوق من مَس القتل إلا كما يذوق من مس القرصة، فهنيئًا لمن وُفِّق للثبات على دين الله ﷻ، وبذل عمره من أجل أن تحيا دعوة الإسلام، ويعلو دين الملك العلام، وما جفت أرض الإسلام من دماء الشهداء، فنسأل الله أن يوفقنا لشهادة في سبيله، مقبلين غير مدبرين، والحمد لله رب العالمين.

(١) باختصار وتصرف من «شهداء الدعوة الإسلامية في القرن العشرين» لمحمد الصايم (١٢٤-١٢٧) ط. دار الفضيلة.